

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٨٢ - سُورَةُ الْاِنْفِطَارِ

وهي مكية . وآيها تسعة عشر .

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ)

[٢] (وَإِذَا الْكُوَاكِبُ انْتَثَرَتْ)

[٣] (وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ)

[٤] (وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ)

[٥] (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ)

« إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ » أى انشقت كما في آية^(١) (وَيَوْمَ تَشَقُّ السَّمَاءُ بِالنِّفْمِ)
 « وَإِذَا الْكُوَاكِبُ انْتَثَرَتْ » أى تساقطت . والانتثار استمارة لإزالة الكواكب ،
 حيث شبت بجواهر قُطِعَ سلكها . وهى مصرحة أو مكنية « وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ »
 أى فتح بعضها إلى بعض ، لزوال الحاجز بزلزلة الأرض وارتجاجها « وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ »
 أى بحثت وأخرج موتاها .

قال الشهاب : يعنى أزيل التراب التى ملئت به ، وكان حتى على موتاها فانفتحت وخرج
 من دفن فيها . وهذا معنى البثرة . وحقيقتها تبديد التراب أو نحوه . وهو إنما يكون لإخراج
 شئ تحتة فقد يذكر ويراد معناه ولازمه معاً ، كما هنا . وقد يتجاوز به عن البعث والإخراج
 كما في سورة العاديات . والفارق بينهما أنه أسند هنا للقبور فكان على حقيقته . وثم ، لما فيها ،
 فكانت مجازاً عما ذكر . ثم قال : وذهب بعض الأئمة كالزخشرى والسهيلى إلى أنه مركب
 من كلمتين اختصاراً . ومثله كثير فى لغة العرب ويسمى نحتاً . وأصله (بعث) و(أثير) أى حرك
 وأخرج . وله نظائر كبسمل ، وحوقل ، ودمعز . أى قال بسم الله ولا حول ولا قوة إلا بالله .

(١) [٢٥ / الفرقان / ٢٥] .

وأدام الله عزه. فعلى هذا يكون معناه النبش والإخراج معاً. ولا يرد عليه أن الراء ليست من أحرف الزيادة، كما توهمه أبو حيان، فإنه فرق بين التركيب والنحت من كلمتين، والزيادة على بعض الحروف الأصول من كلمة واحدة، كما فصله في (الزهر) نقلاً عن أئمة اللغة.

« عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ » أى لذلك اليوم من عمل صالح أو سيئ « وَأَخَّرَتْ » أى تركت من خير أو شر. أو المعنى: ما قدمت من عمل طيب لم تقصر فيه، وما أخرت أى قصرت فيه. والمراد بالعلم بالتقديم والتأخير، وجدان الجزاء عليهما، وتحقيق مصداق الوعد عليهما.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ)

[٧] (الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ)

[٨] (فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ)

« يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ » أى: أى شيء خدعك وجرأك على عصيانه والانحراف عن فطرته. وذکر (الْكَرِيمِ) للمبالغة فى المنع عن الاعتراض. لأنه بمعنى العظيم الجليل الكامل فى نعوته. ومن كان كذلك فنجدير بأن يرهب عقابه ويحشى انتقامه وعذابه. لاسيما وله من النعم العظيمة والقدرة الكاملة ما يزيد فى الرهبة، كما قال « الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ » أى جعلك سويًا متساوي الأعضاء والقوى. وأصل التسوية جعل الأشياء على سواء. فتكون على وفق الحكمة ومقتضاها، بإعطائها ما تتم به « فَعَدَلَكَ » أى جعلك معتدلاً متناسب الخلق، معتدل القامة. لا كالبهايم. وقرئ بالتخفيف وهو بمعنى الشدّد، أو بمعنى صرفك عن خلقة غيرك إلى خلقة حسنة، مزّت بها على سائر الحيوان « فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ » أى: فى أى صورة شاءها ركبك عليها. يعنى أنه ركبك فى صورة هى أبداع الصور وأعجبها. فد (أَيِّ) استفهامية. والمجرور متعلق بـ (رَكَّبَكَ) و (ما) زائدة،

وجملة (شَاءَ) صفة (صورة) . والقصد أن من خلق هذا الخلق البديع وسوّاه وعدله بقدرته وتقديره، حتى أحكم صورته في ذلك التركيب، لَجَدِيرٌ بِأَنْ يُتَقَى بِأَسِهِ وَيُحْذَرُ بِطَشِهِ وَيُرْهَبُ أَشَدَّ التَّرْهِيبِ .

تنبيه :

قال الإمام ابن القيم في (الجواب الكافي) في بحث كون القرآن من أوله إلى آخره صريحا في ترتيب الجزاء بالخير والشر، والأحكام الكونية، على الأسباب، ما تمتته: فليحذر مغالطة نفسه على هذه الأسباب - وهذا من أهم الأمور - فإن العبد يعرف أن المعصية والغفلة من الأسباب المضرّة له في دنياه وآخرته ، ولا بدّ . ولكن تغالطه نفسه .

ثم ذكر من أنواع المغترّين من يفتّر بفهمٍ فاسدٍ ، فَهَمَّهُ هُوَ وَأَضْرَابُهُ مِنْ نُصُوصِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ فَاتَّكَلُوا عَلَيْهِ . قال : كاعتزاز بعض الجهال بقوله تعالى (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ) فيقول : كرمه . وقد يقول بعضهم إنه لقن المغتر حجته . وهذا جهل قبيح . وإما غرّه بربه الغرور ، وهو الشيطان، ونفسه الأمارة بالسوء ، وجهله وهواه . وأتى سبحانه بلفظ (الْكَرِيمِ) ، وهو السيد العظيم المطاع الذي لا ينبغي الاعتزازه ولا إهمال حقه . فوضع هذا المغتر (الغرور) في غير موضعه، واعتزّ بمن لا ينبغي الاعتزازه . انتهى .

وفي مثل هذا الغرور يجب - كما قال الغزالي - على العبد أن يستعمل الخوف . فيخوف نفسه بغضب الله وعظيم عقابه، ويقول: إنه ، مع أنه غافر الذنب وقابل التوب، شديد العقاب . وإنه ، مع أنه كريم ، خلد الكفار في النار أبد الآباد . مع أنه لم يضرّه كفرهم . بل سلط المذاب والمحن والأمراض والعلل والفقر والجوع على جملة من عباده في الدنيا . وهو قادر على إزالتها . فمن هذه سنته في عباده ، وقد خوفني عقابه، فكيف لأخافه؟ وكيف أعتزّ به؟ فالخوف والرجاء قائدان وسائقان يبعثان الناس على العمل . فبالبيعث على العمل فهو تمن وغرور .

ورجاء كافة الخلق هو سبب فتورهم، وسبب إقبالهم على الدنيا، وسبب إعراضهم عن الله تعالى، وإهالهم السعى للآخرة، فذلك غرور. وقد روى أن الغرور سيفعل على قلوب آخر هذه الأمة. وقد كان ذلك . فقد كان الناس في الأعصار الأول يواظبون على العبادات ، ويؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون، يخافون على أنفسهم، وهم طول الليل والنهار في طاعة الله، يبالغون في التقوى والحذر من الشبهات، والشهوات، ويكون على أنفسهم في الخلوات. وأما الآن فترى الخلق آمنين مسرورين مطمئنين غير خائفين . مع إكبابهم على المعاصي وانهما كهم في الدنيا وإعراضهم عن الله تعالى . زاعمين أنهم واثقون بكرم الله تعالى وفضله، راجون لعفوه ومغفرته . كأنهم يزعمون أنهم عرفوا من فضله وكرمه ما لم يعرفه الأنبياء والصحابة والسلف الصالحون . فإن كان هذا الأمر يدرك بالني ، وينال بالهويينا ، فعلى ماذا كان بكاء أولئك وخوفهم وحزنهم ؟

ثم قال : والقرآن من أوله إلى آخره تحذير وتخويف . لا يتفكر فيه متفكر إلا ويطول حزنه ويعظم خوفه ، إن كان مؤمناً بما فيه . وترى الناس يهدونه هذاً . يخرجون الحروف من مخارجها ويتناظرون على خفضها ورفعها ونصبها، وكأنهم يقرأون شعراً من أشعار العرب . لا يهتمهم الالتفات إلى معانيه ، والعمل بما فيه . وهل في العالم غرور يزيد على هذا ؟ انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (كَلَّا بَلْ تُكذِّبُونَ بِالِدِينِ)

[١٠] (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ)

[١١] (كِرَامًا كَتِيبِينَ)

[١٢] (يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ)

« كَلَّا بَلْ تُكذِّبُونَ بِالِدِينِ » قال الإمام : أى لا شيء يفرك ويخدعك . بل إن

سعة عطاء ربك وحكمته في كرمه، تدلك وتوحى إلى نفسك أنك مبعوث في يوم آخر، لثواب أو عقاب . وإنما الذى يقع منك، أيها الإنسان، هو العناد والتكذيب بالدين. أى الجزاء، أى الانصراف عمدا وعنادا عما يدعو إليه الشعور الأول، وعن الدليل الذى تقيمه الرسل، والحجة التى يأتى بها الأنبياء . مع أن الله تعالى لم يترك عمالمن أعمالك إلا حفظه وأحصاه عليك حتى يوفيك جزاءه ، كما قال « وَإِنَّ عَلَيْنَا لَلْأَحْفَظِينَ » أى رقباء يحفظون أعمالكم ويحصونها عليكم « كِرَامًا كَتِيبِينَ » أى يكتبون ما تقولون .

« يَمْلِكُونَ مَا تَلْمُحُونَ » أى من خير أو شر . أى يحصونه عليكم، فلا يغفلون ولا ينسون قال الرازى : إن الله تعالى أجرى أموره مع عباده على ما يتعاملون به فيما بينهم . لأن ذلك أبلغ فى تقرير المعنى عندهم . ولما كان الأبلغ عندهم فى المحاسبة إخراج كتاب بشهود، خوطبوا بمثل هذا فيما يحاسبون به يوم القيامة . فيخرج لهم كتب منشورة ، ويحضر هناك ملائكة يشهدون عليهم ، كما يشهد عدول السلطان على من يعصيه ويخالف أمره . فيقولون له : أعطاك الملك كذا وكذا ، وفعل بك كذا وكذا ، ثم قد خالفته وفعلت كذا وكذا . فكذا ها هنا . والله أعلم بحقيقة ذلك . انتهى .

ولا يخفى أن الحفظة الكرام وعلمهم ، من الغيب الذى لا يمكن اكتناهاه . فيجب الإيمان به ، كما ورد . مع تفويض كنهه إلى بارئه تعالى . ومن الفضول فى العلم التوسع فيما لا يدرك بالنظر وتسويد وجوه الصحف بها . وبالله سبحانه التوفيق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ)

[١٤] (وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ)

[١٥] (يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الدِّينِ)

[١٦] (وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ)

[١٧] (وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ)

[١٨] (ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ)

[١٩] (يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ، وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ)

« إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ » قال ابن جرير^(١) : أى إن الذين برّوا بأداء فرائض الله ،

واجتناب معاصيه ، لفي نعيم الجنان ينعمون فيها .

والأبرار جمع (برّ) بفتح الباء وهو المتصف بالبرّ (بكسرها) أى الطاعة . قال

الأصفهاني : وقد اشتمل عليه قوله تعالى^(٢) (لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ

الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ

وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ

وَالسَّابِقِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْفُونَ بِمَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ،

وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ، وَأُولَئِكَ

هُمُ الْمُتَّقُونَ) . وقوله تعالى : « وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ » أى الذين تجرّوا عن أمر الله .

أى انشقوا عنه وخالفوه . وهم من لم توجد فيهم نعوت الأبرار المذكورة فى الآية قبل

« يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الدِّينِ » أى يوم يدان العباد بالأعمال ، فيجازون بها « وَمَا هُمْ عَنْهَا

بِغَائِبِينَ » أى بخارجين ، لأنهم مخلدون فى صلاتها . وقوله تعالى « وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ

الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ » تفخيم لأمر ذلك اليوم وتعظيم لشأنه .

أى أى شىء أعلمك به ؟ أى أنت لا تدريه مع أنه من أوجب ماتهم درايتهم والبحث عنه .

(١) انظر الصفحة رقم ٨٨ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٢ / البقرة / ١٧٧] .

واخطاب للإنسان المتقدم أول السورة . ثم فسّر تعالى بعض شأنه بقوله « يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ شَيْئًا » أى من دفع ضرّ أو كشف همّ « وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ » أى أمر الملك الظاهر ، ونفوذ القضاء القاهر ، يومئذ لله وحده . لاضمحلال الممالك وذهاب الرياسات .

قال الرازى : وهو وعيد عظيم ، من حيث إنه عرفهم أنه لا يغنى عنهم إلا البر والطاعة يومئذ ، دون سائر ما كان قد يغنى عنهم فى الدنيا ، من مال وولد وأعوان وشفعاء .